بسم الله الرحمن الرحيم

∞∞∞

تم رفع هذه الرسالة بواسطة / سامية زكى يوسف

بقسم التوثيق الإلكتروني بمركز الشبكات وتكنولوجيا المعلومات دون أدنى مسئولية عن محتوى هذه الرسالة.

ملاحظات: لا يوجد

جامعة عين شمس ـ كلّيّة الآداب
قسم اللغة العربيّة

التناصّ
بين النقد الغربيّ وإشكاليّة التلقّي

رسالة مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب

تخصّص: نقد أدبيّ

الباحث

فيصل عبد المهدي سعود شهاب

إشراف

أ.د. إبراهيم محمود عوض
أستاذ متفرّغ
أستاذ النقد الأدبيّ
كلّيّة الآداب ـ جامعة عين شمس

أ. د. محمد إبراهيم الطاووس
أستاذ متفرّغ
أستاذ النقد الأدبيّ
كلّيّة الآداب ـ جامعة عين شمس

2022

مستخلص الدراسة

اهتمّ البحث بدراسة التناصّ بين النقد الغربيّ وإشكاليّة التلقّي، على الرغم من تعدّد الدراسات حول نظريّة التناصّ؛ وذلك لعدم توافر رؤيةٍ واضحةٍ حول النظريّة يمكن الالتفاف حولها، ولميل كثيرٍ من الدراسات للأخذ من بعضها دون الرجوع إلى النظريّة في مصادرها الأصليّة، فأصبحت تكرارًا غير منتجٍ، وزاد من الإشكاليّة تطبيق النظريّة قبل استقرارها، على عددٍ كبيرٍ من الأعمال الأدبيّة عمومًا، والشعريّة خصوصًا، وفي خصوص التلقّي برزت إشكاليّات أخرى، لم تلقَ من العناية ما تستحقّ، وأصبحت عرفًا بين السواد الأعظم من الدراسات العربيّة؛ كان من أبرزها السعي لاستحضار نماذج من التراث النقديّ العربيّ، لجعلها موازيًا لنظريّة التناصّ الغربيّة، وغلب عليها الجنوح نحو اختيار السرقات الشعريّة لذلك.

وتميّزت الدراسة بمقاربة النظريّة من مصادرها المعتمدة، وبتقسيم مسار النظريّة إلى مراحل ثلاث، هي: مرحلة النشوء، ثمّ مرحلة الاعتماديّة والتوسّع على يد النقاد الغربيّين؛ وأخيرًا مرحلة الانتشار والعالميّة؛ التي تناولت الدراسة فيها التلقّي العربيّ أنموذجًا، ورصدت الدراسة؛ بتتبّع هذا التقسيم، التغيّرات التي أُدخلت على النظريّة، في المرحلتين الأخيرتين، وكشفت نتائج الدراسة عن دائرةٍ مفاهيميّة، تشكّلت في إطار نظريّة التناصّ، وتوصّلت إلى أنّ نظريّة التناصّ نشأت في ظروفٍ خاصّةٍ، ونتجت عن روافد معرفيّة تختلف عن العوامل التي برزت في ضوئها مفاهيم أخرى؛ كمفهوم السرقات الشعريّة، وانتهت الدراسة بمجموعةٍ من النتائج المهمّة والتوصيات المقترحة، لتوفير رؤيةٍ أوضح للدرس النقديّ العربيّ، وفهم النظريّة وجعلها أكثر استقرارًا، وأخذ النقد العربيّ نحو مقاربة النظريّة النقديّة الغربيّة بموضوعيّة، بعيدًا عن الافتتان بها دونما مبررٍ، أو الإشاحة عنها عن تعصّب؛ بما يؤهّل إلى فتح آفاقٍ أرحب أمام النظريّة النقديّة العربيّة.

الكلمات المفتاحية: التناصّ - النقد - إشكاليّة – التلقّي.

شكر وعرفان

ليس يفوتني أن أعترف لأستاذَيّ الدكتورَين الكريمَين: إبراهيم محمود عوض، ومحمّد إبراهيم الطاووس، بحقّ صنيعهما معي، منذ بداية الدّراسة حتى نهايتها، إذ لم يبخلا عليّ بوقتهما وجهدهما وعلمهما، في متابعة مراحلها.

ولم يألوَا جهدًا في مساعدتي وتوجيهي بملاحظاتهما وتعليقاتهما النافعة السديدة، الّتي كانت خير معينٍ ومرشدٍ على إتمام الدّراسة بالصورة التي جاءت عليها، وقد كنت أحرص غاية الحرص على الأخذ بها والإفادة منها، إلى جانب تحفيزهما وتشجيعهما إيّاي على الدوام.

فلهما منّي أصدق معاني الشّكر، وأنبل صور العرفان والحبّ، وأنا إذ أعترف لهما بالعون الّذي قدّماه وبالأيادي الّتي أسدوها، لأسأل الله أن يبقيهما ذخرًا للعلم، ومنارةً لطلّابه، وأن يديم عليهما الصّحّة والعافية.

إهــداء

إلى والِدَيَّ، ترفرف روحاهما في الخلد،

إلى لسان أمّي؛ الذي ما فتئ يلهج لي بالدعاء، حتّى مضت، وكنت آمل أن تبقى؛ لتشهدَ معي.

إلى زوجتي المخلصة، وأولادي: فاطمة وغفران ومهدي وعبد الله وجنان؛ الذين أخذ منهم هذا العمل؛

ليرى النورَ، الشيءَ الكثير.

مقدّمة

ضـمن مخاضــات القرن العشــرين، شــهد النقد الغربيّ عناية بالغةً بالتلاقح مع تيّاراتٍ عقليّةٍ وفكريّةٍ راجت آنذاك، وكان ذلك إفرازًا طبيعيًّا لاطّلاع المنشــغلين بالأدب، عبر عقودٍ قريبةٍ مضــت، على نتاجاتٍ فلسفيّةٍ وفكريّة؛ جاشت بها محطّاتٌ بارزةٌ من تاريخ الفكر الغربيّ، ولاسيما عصر الأنوار الأوروبّيّ وما تلاه، وكان لذلك أثرٌ بـارزٌ في أن نرصـــد، في تلك المرحلة من تـاريخ النقد الغربيّ، حراكًا نقديًا غير مسـبوقٍ، ظهرت في إثره كثيرٌ من النظريّات النقديّة سـواء في أوروبا أم روسـيا أم أمريكا، وفي أتون هذا الجوّ المحموم، شهدت أوروبا، وفرنسا تحديدًا، بزوغ مفهومٍ جديدٍ، هو مفهوم (التناصّ)، الذي تبنّته الباحثة بلغاريّة الأصل فرنسيّة الجنسيّة جوليا كريستيفا (ولدت عام 1941)، في محاولاتها المكتوبة مع نهاية العقد السابع من القرن العشرين.

وكانت كريستيفا، إلى جانب انشغالاتها الأدبيّة والنقديّة، اختصاصيّةً نفسيّة وفيلسوفةً وباحثةً اجتماعيّة، فظهر أثر اهتماماتها في كيفيّة تأطيرها المفهومَ والنظريّة، وزامن ذلك ما راج منذ ستينيّات القرن العشرين من زيادة انفتاح النظريّة النقديّة وتلاشـــي الحدود بينها وبين مختلف العلوم، كما كان لتبنّيها فكر البنيويّة، قبل أن تشيح بوجهها عنها، دور في تجسير مرحلة ما بعد البنيويّة، إلى جانب زملائها، من النقّاد البارزين، ولاسـيما مَن انضـوى منهم تحت جماعة تيل كيل، من أمثال رولان بارت (1915-1980) وميشـيل فوكو (1926-1984) وموريس بلانشـوت (1907-2003) وبيار بولز (1925-2016) وجاك دريدا (1930-2004) وتزفيتـان تودوروف (1939-2017) وجيرار جينيـت (1930-2018) وأمبرتو إيكو (1932-2016)، الذين عاشوا فكرة التحوّل عن المؤلف إلى النصّ في البنيويّة، ثم ما أعقب ذلك من تحوّل النظريّة النقديّة عن النصّ الى القارئ، لتكون له إنتاجيّة النصّ، وهو السياق الذي نشأت فيه نظريّة التناصّ.

وقد تناول هؤلاء وغيرهم مفهوم (التناصّ)، وعدّوه أبرز مفاهيم الانقلاب على البنيويّة، والأنموذج الأبرز للتمرّد عليها في النقد الغربيّ، حتّى صار له موقعٌ متفرّدٌ بين مفاهيم المرحلة، لخروجه الصريح على ما شاع قبله من انغلاق النصّ، وهذا يجعل لدراسة أوّليات التناصّ، مفهومًا ونظريّة، أهمّيّةً كبرى، على صعيد تتبُّع المؤثِّرات الفاعلة فيه، بما يعين على فهمه ووعي التجاذبات والرؤى المتفاوتة التي نتجت عنه.

وفي خصوص تناول نظرية التناصّ داخل درسنا النقديّ، نجد أنّها استنفدت مدى زمنيًّا أطول، قياسًا بكثيرٍ من النظريات النقديّة التي وفدت إلينا؛ دون أن يقرّ لها قرار؛ فعمرها اليومَ يربو على خمسة عقودٍ منذ نشأت، وعلى أربعة عقودٍ منذ وفدت إلينا، ورغم هذا المدى الزمنيّ والحبر المُسال؛ نتيجة الهبّة التأليفيّة التي أغرقت المكتبة بنتاجٍ وافرٍ حولها، منذ أن أصبحت من أبرز مسائل انشغال درسنا النقديّ الحديث، فإنّها لا تزال تتدحرج ككرة الثلج، وتكبر شوطًا بعد شوطٍ، دون أن تُكَوّن لها صورةً نهائيّةً مستقرّة، وساعد على

هذه الحال عوامل كثيرة، منها: تفاوت الاجتهادات وكثرة اشتقاق المفاهيم حولها، وسحب المفهوم إلى تخصّصاتٍ مختلفة، كما كان لاستعجال إدلاجها في الأطر النقديّة التطبيقيّة، على نحوٍ غير موازٍ لمستوى الوقوف على أسسها الفكريّة، وبمنأى عن فهمها من مصادرها، ودون تفريقٍ بين ما طرأ عليها من تبديلٍ أو تفريعٍ أو تطويرٍ خلال مراحلها، دورٌ في ترسيخ هذه الحال غير المستقرّة.

وتبرز مشكلة الدّراسة وموضوعها في تركيزها على دراسة (التناصّ بين النقد الغربيّ وإشكاليّة التلقّي)، من خلال سمتين بارزتين، تميّزت نظريّة التناصّ بهما، ضمن ما تميّزت به، بين النظريّات النقديّة التي عاصرتها، وهاتان السّمتان هما:

أوّلاً: كونها أنموذجًا للنظريّات النقديّة التي حاولت اقتفاء منهجٍ علميٍّ في مبانيها، واستقت الثقافة المادّيّة العقليّة، واستلهمت نتاجاتها، وانفتحت انفتاحًا شديدًا على الفكر والتاريخ والفلسفة والتحليل النفسيّ وعلم الاجتماع، حتّى أضحت مجموعة ممارساتٍ في التفكير والكتابة لا يسهل بيانها، وتجاوزت فاعليتها مجالها الأصلي، لما صار لها من علاقةٍ بالعلوم؛ ولما رسّخته من دورٍ للعلوم في اكتشاف الخطاب، متجاوزةً حدود نقد اللغة باللغة ومعطياتها الصرفة فحسب، وذلك في وسطٍ نقديّ، شهد ظهور نظريّات، توسّلت هي أيضًا بمختلف العلوم، دون أن يكون لها ما صار لنظريّة التناصّ؛ من ذيوعٍ وقبولٍ بين الأوساط النقديّة، داخل أوروبا وخارجها.

وإذا لم يكن هذا الشأو الذي نالته نظريّة التناصّ، وجعل منها مسألةً نقديّة بارزة، يمثّل لبّ المسألة، فإنّ ما يعني الدراسة هو ما قامت عليه النظريّة من امتداداتٍ معرفيّة، في إطارٍ من التزامها بالمنهج العلمي، وتوسّلها بمختلف العلوم، وتجاوزها تقييد النقد باللغة، وهو ما يحمل الدراسة على محاولة كشف ما يلقيه ذلك كلّه من ظلالٍ على طريقة تعاطيها مع الظاهرة الأدبيّة، وكذلك على وسائلها وأدواتها، الّتي يمكن للناقد بها مقاربة النصّ وتفسيره؛ ولنرى، أيضًا، إلى أيّ مدى يمكن للدرس النقديّ العربيّ أن يفيد من ذلك المنهج العلميّ، ومن هذه المرجعيّة الفكريّة الفلسفيّة، في تأطير رؤيته النقديّة وتدشين نظريّةٍ نقديّةٍ من داخل أطره ومرجعيّاته الفكريّة والمعرفيّة.

ثانيًا: تبدّل حال نظريّة التناصّ في مراحل مختلفة مرّت بها، فصار لكلّ مرحلةٍ ملامح محدّدة، وإذا كان من الصعوبة تقسيم كثيرٍ من النظريّات النقديّة إلى مراحل، فإنّ نظريّة التناصّ طرأ عليها ما أمكننا من تقسيمها إلى مراحل ثلاثٍ، تبوّأت بها موقعها في الحركة النقديّة والثقافيّة المعاصرة، وتلك المراحل هي: مرحلة الاستلهام والنشوء على يد كريستيفا، ثمّ مرحلة التنازع والاعتمادية والتوسّع على يد النقاد الغربيّين؛ ثمّ مرحلة الانتشار والعالميّة؛ وتناولت الدراسة فيها التلقّي العربيّ أنموذجًا، على أنّ هذا التقسيم النظريّ لا يعني بتر المراحل عن بعضها، بل هو إطارٌ يعين على التمييز بين ما صار إليه المفهوم وبلغته

النظريّة، في كلِّ مرحلةٍ، عبر ما حملت الدراسة نفسها عليه من تناول نتاج المشتغلين بالنظريّة داخل كلّ مرحلة.

إنّ استناد الدراسة إلى هذه المرحلية المنهجيّة من المقاربة جعل لكلِّ مرحلةٍ خصائصها، فاستجلينا من خلال هذه المرحليّة منطلقات النظريّة الأم، وطفقنا في المرحلتين اللاحقتين نستبين ما اعترى النظريّة من تعديلٍ وتبديلٍ وتطويرٍ وتفريعٍ، وتمّ كشف ما التزم به مما لم يلتزم به مَن تناولها، والبواعث التي جعلته يلتزم ببعض مقرّراتها حينًا، ويخرج عليها حينًا آخر، كما حقّقت هذه المرحلية هدفًا آخر مهمًّا جدًّا للدرس النقديّ العربيّ، هو تحييد ما وقع فيه كثير من الباحثين، من لبسٍ وخلطٍ بين نظريّة التناصّ وما تزامن معها وجاء في إثرها من رؤى نقديّة، على النحو الذي ستكشفه مباحث الدراسة.

ولهذا كان ضروريًّا عدم إغفال تقاطعات هاتين السّمتين مع مؤثّراتٍ أخرى، يعدّ إغفالها إخلالاً، كعلاقة النظريّة بالرؤى المتقاطعة معها في الخروج على فكرة البنيويّة والمعنى المستقر، على أنّ تناول هذه الرؤى إلى جانب تلكما السّمتين الفاعلتين أمر يقتضيه التّنظير فحسب، حيث تتقاطع هذه المؤثّرات بصورةٍ منطقيّةٍ، يصعب معها الفصل بينها، وتكون هذه المؤثّرات الثّانويّة مفردةً من مفردات تلكما السّمتين الرّئيستين.

إلى جانب ما تقدّم، فإنّ ما يعزّز أهمية الدراسة أيضًا، هو أنّ نظريّة التناصّ، مع ما نالته، بين يدي النقاد والباحثين العرب من عنايةٍ، سواء بصورةٍ عابرةٍ ضمن مقالةٍ، أم في مبحثٍ وسط كتابٍ نقديّ، أم في دراسةٍ مستقلّةٍ، فإنّ كثيرًا من دقائقها لا تزال بحاجةٍ إلى الكشف والدّرس، والّذي يتبيّن، من تتبّع المقالات والدّراسات حول نظريّة التناصّ، أنّ جانبًا كبيرًا من هذه الدّراسات، جاء على أحد هذين المسلكين:

1- الميل نحو النقل من دراساتٍ سابقةٍ، دون مقابلةٍ بين مضامينها، أو عنايةٍ بتساقط بعض استنتاجاتها وأحكامها حول النظريّة ببعض، وهو ما أضعف من قدرة هذه الدّراساتِ على أن تُضيف جديدًا للدّرس النقديّ العربيّ، وأعان على بقاء البحث يراوح مكانه، وأَقَرّ أفكارًا خاطئةً، أخذت تتوالى حول النظريّة.

2- اعتماد أحكامٍ واستنتاجاتٍ حول النظريّة لا تستقيم معها، وتتنافى مع ما يرشح عن فهمها من مصادرها، فتسوق هذه الدراسات أحكامًا سوق المسلّمات، حتّى إذا تمّ الاحتكام إلى المصادر لم تشفع لها.

يُضاف إلى ذلك ما نال فهمَ النظريّة من حيفٍ؛ ألقى بضلاله على الدرس النقديّ العربيّ، تمثّل في جانبين، أوّلهما نشرُ بعض الباحثين أفكارًا حول النظريّة، هي أقرب إلى الآراء الخاصّة التي لا تمثّل النظريّة، وثانيهما أنّ هذه الآراء، على معايبها؛ لبعدها عن تمثّل النظريّة، أُلصقت بها، وأصبحت أساسًا لدراساتٍ

لاحقةٍ، لبعض مَن تعجّل الكتابة حولها دون فحص النظريّة وتأمّل مصادرها، وكان بديهيًّا أن تقدّم هذه الدّراسات نتائج بعيدةً عن واقع النظريّة، مخالفةً لحقيقتها.

ويظهر أن هذا النوع من التعاطي مع نظريّة (التناصّ)، وإعطاء نتائج سريعة حولها، كان، ايضًا، ديدن جانبٍ من الدراسات الغربيّة قبل غيرها، وهو ما استثار حفيظة مارك أنجينو، فرأى أنّ كلمة تناصّ، منذ أطلقتها كريستيفا، هاجرت إلى كلّ مكانٍ تقريبًا دون أن يعني ذلك استيعاب التحليل السيميائيّ والاشتقاق المادي اللذَين وضعت حدودهما، وأنّ نتائج مقاربات الباحثين تفاوتت بين تقديم تأويلاتٍ مهمّة تصقل المفهوم، وبين الكتابة من أجل الدُّرجة (الموضة).

فلم يكن بيد الدراســـة، وانطلاقًا من كلا الأمرين اللذَين غلبا على تلك الدراســـات، وهما: التجافي عن مصادر النظريّة؛ وما نتج عن ذلك، من التوارد على المكرور، إلاّ أن تضرب عن الدّراسات الّتي على هذه الشّــاكلة صــفحًا، وتخلد إلى مصــادر النظريّة والدراســات الموثّقة حولها؛ تتأمّلها وتســتنطق مضــامينها، وتناقش في ضـوئها مختلف الآراء، وتقابل بينها بالنقد والاسـتدراك، مع التجافي التامّ عمّا تغري به سـاقية الدوران في المكرور المعاد، من قرب المورد وسهولة المأخذ، فلم تقبل الدراسة إلاّ ما قام عليه الدّليل وإن خالفته دراساتٌ سابقةٌ أو لم تأتِ على ذكره، وهذا المسلك التّحقيقيّ الّذي حملت الدراسة نفسها عليه تعكسه طبيعة المقاربة.

ولكنّني حين جئت أستنطق المصادر الأساسية للنظريّة، اعترضتني صعوبةٌ أخرى؛ حيث وجدتها عصيةً؛ إلى حدِّ أنّ مترجمًا بارزًا، وهو فريد الزاهي: مترجم كتاب كريستيفا (علم النصّ)، وصف كتابتها بأنّها متَمَنِّعةِ أو مُمْتَنعةِ عن الترجمة، وأنّها نوعٌ من الرهان الثقافيّ، وأقرّ مشاهير النقّاد الغربيّين بصعوبة لغتها الكتابيّة، ومنهم برنار توسان أحد الأساتذة الكبار الذين يباشرون الدراسات الأدبيّة واللسانيّة في السوربون؛ ورأى أنّ نظريّتها صعبةٌ إلى حدٍّ بعيدٍ ببلورةٍ دقيقةٍ وتوثيقٍ متقنٍ وإطنابٍ مثبطٍ، وأنّه بصعوبةِ قراءةٍ يحاول فهم النظريّة، وأكّد جان بيلمان ما تتسم به نظريتها من تداخل الاختصاصات، وعبّر بارت عن صعوبتها ووصف عملَها بأنّه خروجٌ على كلِّ أنساق الانشغال السابقة، كما كانت كتب باختين أيضًا من مصادر الدراسة الأساسيّة، وقد عُرفت كتاباته، هي الأخرى، بالحاجة إلى الصبر وإمعان النظر، للظفر بفكرته.

ورغم ذلك، فقد صدقتُ العزمَ نحو تحقيق هدف الدراسة، وسعيت لتفكيك حال التكثيف والتداخل التي لفّت تلك الكتابات، وما أصدقَ أولئك في وصف كتابات كريستيفا؛ حيث وجدتها في غاية التحذلق والتخصّص والإيغال والتشعّب، حتّى لتجد نفسك وأنت تحاول قنص الفكرة، قد زلقت بك تفاصيلها، فيتبدّد من ذهنك ما جمعت، لتعيد المحاولة، وهكذا دواليك حتّى تطال الفكرة بعد لأيٍ وصبر، وربما تكون هذه الصعوبة سبب

عزوف البعض عن أخذ النظريّة من مصادرها، والتوارد على اقتباساتٍ بعينها؛ وليس يصعب على المتنقّل بين النتاجات العربيّة، حول التناص، أن يلتقي باقتباساتٍ ثابتةٍ، ربما رجّح أصحابها نقلَها على تجشّم عناء مباشرة النظريّة نفسها، وأسهم هذا في جمود تناول النظريّة في درسنا النقدي، إذ لم تكن هذه الاقتباسات الثابتة إلا جزءًا نزيرًا ممّا ينبغي الوقوف عليه وفهمه؛ للإفادة منه أو ردّه.

في ضوء كلّ ما تقدّم، فإنّ الدراسة تأخذ بمنهج نقد النقد؛ لما يقوم عليه هذا المنهج من إعادة قراءة القول النقديّ، وفحص مرجعيّاته، والوقوف على منطلقاته الأساسيّة وأدواته الإجرائيّة، فهو يؤهّلنا إلى أن نعمد إلى العناصر المكوّنة لنظريّة التناصّ، فندرسها عبر تحليلٍ نزيهٍ، بعيد عن الذّاتيّة، والتّأويل غير المسوّغ، ويحجزنا عن أن نتعامل مع النظريّة خارج مرجعيّاتها المعتمدة، وسياقها التاريخيّ الّذي وُجدت فيه، وهو بذلك يكفل عدم الحكم على النظريّة بمعيارٍ ذهنيٍّ جامد، ويضمن الموضوعيّة للدراسة، ويوفّر لنتائجها الواقعيّة والصّدق، ولأنّ الدراسة تتناول الظاهرة النقديّة، والأفكار العامّة حولها، وجملةً من الاقتباسات والاستشهادات، وتستحضر في سبيل ذلك نصوصًا بعينها؛ وتقاربها، فإنّ هذا يعني الحاجة أيضًا للنقد التنظيريّ والتطبيقيّ داخل الدراسة.

وجاءت الدراسة في مقدّمةٍ وأربعة فصولٍ وخاتمةٍ، فتناول الفصل الأوّل أوّليّات التناصّ لدى كريستيفا، وتصدّرته توطئةٌ اجتماعيّة تاريخيّةٌ حول ظروف نشأة المفهوم، والأجواء الّتي شهدت بواكير ظهور النظريّة وأثّرت في مباحثها، ثمّ وقفنا على مرحلة الاستلهام والتبنّي، وهو حديثٌ وثيق الصّلة بسابقه، فهو يوقفنا على جملة تساؤلاتٍ حول امتدادات التناصّ؛ فما مفهوم التناصّ؟ وكيف نشأ؟ وما الروافد المعرفيّة للنظريّة؟

والدراسة، من هذا المدخل، تؤذن بالنفاذ إلى مساحةٍ؛ نقرأ من خلالها جانبًا مهمًّا من العقل الغربيّ وبِناه الفكريّة والفلسفيّة، الّتي دشّنت مشهده النقديّ الحديث، الذي تعدّ نظريّة التناصّ إحدى تجلّياته المهمّة؛ المؤثّرة في الحركة النقديّة الغربيّة والعالميّة المعاصرة؛ حيث سنتتبّع، في عمليّة حفرٍ معرفيٍّ دقيقةٍ، مسارب إفادة التناصّ من لسانيّات دي سوسير، ومن الرؤى الفلسفيّة والاجتماعيّة لميخائيل باختين، ومن مباحث علم النفس، وبخاصّة آراء جاك لاكان، ومن المقولات الفلسفيّة، وبخاصّة قوانين هيجل، وسنرى: كيف تشكّل من هذه التوليفة المعرفيّة واحدٌ من أكثر المفاهيم النقديّة المعاصرة تأثيرًا؟ وكيف سيساهم كلّ ذلك في الصيغة التي استقرّ عليها؟

تجدر الإشارة إلى استناد الدراسة في تناولها نظريّة التناصّ عند كريستيفا، إلى مفاهيمها العميقة في نظريّتها النصيّة العامّة؛ مع ما يحتاجه ذلك من صبرٍ؛ بسبب لغتها التأليفيّة الخاصّة وعمق مباحثها، كما تقدّم، وهذا يبرز أهميّة الدراسة؛ لوقوفها على النظريّة من مصادرها، ولاسيما ما كتبته كريستيفا نفسها، وبخاصّةٍ كتابها (علم النصّ)، وأكّد العزم على تحمل هذا الجهد ما تكشّف من أنّ تناول التناصّ بعيدًا عن

مصادره، لم تقف آثاره عند حدود عزل فكرة التناصّ عن واقعها فحسب، بل تجلّت في ما راج من مقارباتٍ مستعجلةٍ وأحكامٍ مغلوطة.

ولأنّ علاقة نظريّة التناصّ الكريستيفيّة بالنقد الغربيّ هي علاقة الجزء بالكلّ، فقد عُقد الفصل الثاني لتناول التلقّي الغربيّ للنظريّة، ونظرًا لما يمثّله حقلها المفاهيميّ من منفذٍ لكشف نظريّتها وبيان انعكاساته على النقد الغربيّ، فقد أفردنا المبحث الأوّل من الفصل لتناول هذا الحقل، لنقارب في المبحث الثاني منه اتّجاهات التلقّي الغربيّ للنظريّة ونرصد إسهامات النقّاد الغربيّين الذين قاربوها من مشارب ومداخل متعدّدةٍ، ونبيّن آراءهم المتفاوتة حولها؛ وما أثارته من سجالٍ مستفيضٍ، عُدّت معه مبعثًا للاضطراب في كلّ الاتجاهات، وحملنا هذا على التساؤل عن موقع النظريّة بين أدوات النقد الغربيّة، وإلى أيّ مدى كان للتلقّي الغربيّ وما أبداه من عنايةٍ بالغةٍ بحقل التناصّ، من ارتداداتٍ على نظريّة التناصّ الكريستيفيّة؟ وإلى أيّ مدى تمكّنت نظريّة كريستيفا من المحافظة على أطرها؛ بمنأى عن التغيير، سواء على مستوى تحديد المفهوم، أم التفريع عليه، أم آليّات تطبيقه؟ وما أثر ذلك كلّه على الحركة النقديّة الغربيّة وأطرها العامّة؟

بعد ذلك، تلج الدراسة مرحلة التلقّي العربيّ، ولمّا كان استدعاء النقاد والدارسين العرب التراثَ النقديَّ العربيَّ، وبخاصّةٍ مسألة (السرقات الشعريّة)، قد شغل مساحةً كبيرةً من مقارباتهم للنظريّة، منذ أن حلّت بينهم، صار من الصعوبة بمكانٍ قراءة قصص التلقّي العربيّ للنظريّة، دون الوقوف على مسألة التعالق النصّيّ في تراثنا النقديّ أوّلاً، لتتأهّل الدراسة لاحقًا للوقوف على مختلف المقاربات العربيّة للنظريّة.

ولذا تناولت الدراسة في الفصل الثالث التعالق النصّيّ في ضوء السرقات في نقدنا القديم، لرصد بواعث نشأة مفهوم السرقات الشعريّة ومدى تماسك مبانيه، وأثر انشغالات ذلك النقد في تبنّي مفهوم السرقات، متوسّلين بالحقل المفاهيميّ لنقّادنا القدامى، في تبيُّن ما بين السرقات ونظريّة التناصّ، من التقاءٍ وافتراقٍ، والكشف عن مدى وعي نقدنا القديم بفحوى ما اصطُلِحَ عليه بالتناصّ في النقد المعاصر،

من ثمّة تناول الفصل الرابع التلقّي العربيّ للنظريّة، فبدأ بالوقوف على دراساتٍ عربيّةٍ أولى؛ جاءت في بحر العقد الأول منذ وصول النظريّة إلينا، وهي محاولات: محمّد بنيس، وصبري حافظ، ومحمد مفتاح، وسعيد يقطين، لنرى إلى أيّ مدى استطاعت تبيين النظريّة وما يفيده درسنا النقديّ منها، ثمّ نرصد وجوه انشغال النقد العربيّ بالنظريّة، ونعرض نماذج لكلّ وجهٍ منها، ونخصّص المبحث الأخير لما نشأ داخل التلقّي العربيّ من موازنةٍ بين النظريّة ونقديّة السرقات، على مِحكّ ما توصّلنا إليه من نتائج في الفصل السّابق، وهذا النّهج الّذي التزمته الدراسة لا يوقف القارئ الكريم على آراء الدراسة حول النظريّة فحسب، بل يطلعه، في الوقت نفسه، على مختلف الآراء: الأصيلة منها والهزيلة، ليفرّق بين رأيٍ ورأي.

وأرجو أن تحقق الدراسة أهدافها، وأن تقدّم، إلى جانب دراساتٍ جادّةٍ أخرى لباحثين آخرين، إلى درسنا النقدي، ما يمكن المساهمة به لفهم النظريّة، وتبيين مسار تطورها؛ ليستقيم أمر مقاربتها؛ ثمّ المجادلة عنها أو نقدها، وأن تكشف الدراسة عن جوانب مهمّة داخل الحقل المفاهيميّ لنقدنا القديم، المتصل بالتعالق النصّيّ وآراء نقّادنا حوله، كما أرجو أنْ تقدّم الدراسة، في سياق ذلك، ما قد يمكن عدّه أنمودجًا ضمن نماذج أخرى، لما يمكن أن تأتي عليها مقارباتنا للنقد الغربيّ، بما يؤهل للاستفادة منه وتبيين مثالبه، وإثارة التساؤلات حوله.

وها أنا أُلقي عصا التسيار بين مباحث النظريّة، على إنّني غيرُ مدّعٍ كمالاً، وليس بأوفر حظًا عندي من قريبٍ أو بعيدٍ، دلّني على مساقطها، وأوقفني على نواقصها، راجيًا أن أكون قد وفيت للدرس النقديّ العربيّ في مقاربتها حقّه، ووُفّقت لأنجع السّبل في تناولها بالدّراسة والبحث، سائلاً المولى أن يجعل في هذا الجهد ما يُضيف لبِنةً أو يسدّ نقصًا، وعنده أحتسب تعبي وجهدي، وهو من وراء القصد.

فيصل شهاب

2022/5/12

الفصل الأوّل

بَداءة نظريّة التناصّ في النقد الغربيّ

من الاستلهام إلى التبنِّي

المبحث الأوّل

مشهد ظهور النظريّة

بين سواقي النقد الغربيّ الحديث

توطئة

لسنا، في حدود هذا المبحث، ونحن نتتبّع سواقي التناصّ في الظّاهـرة النقديّة الغربيّة، معنيّين على نحوٍ مباشرٍ، ببحث مسألة التأصيل الفكريّ والفلسفيّ لمفهوم النقد، لكنّنا لن نكون في حلٍّ من تناول المدى الذي كانت عليه حاجة المشتغلين بالنظريّة النقديّة الغربيّة إلى استدعاء الفكر والفلسفة لعقلنة النقد، وقياس مدى ركونهم إليهما في بلورة أفكارهم النقديّة وإعادة صياغتها؛ فضلاً عن أنّ الدراسة ستجد نفسها، في جوانب مفصليّةٍ منها، في أتون ذلك؛ للتلازم بين الجانبين، ذلك التلازم الذي كان حاضرًا في وعي المتصدّين الأوائل لمفهوم (التناصّ)، إلى حدٍّ يكون معه تجاوز الاعتناء بهذا التلازم إخلالاً بمقتضى البحث، وقفزًا على عتباتٍ مهمّة نحتاجها؛ لفهم النظريّة ودراستها في بيئتها، وهو ما سينعكس على نتائج نتوخّى دقتها، كما سيظهر.

والدراسة من هذا المدخل، تؤذن بالوقوف على جانبٍ من البنى الفكرية والفلسفيّة للعقل الغربيّ ومرجعيّاته وآليّات تناوله مختلف القضايا الّتي يحفل بها مشهده النقديّ، الذي تعدّ (نظريّة التناصّ) إحدى تجلّياته المهمّة المعاصرة؛ بما استلهمته من ذلك التشظّي الفكريّ والفلسفيّ والمنهجيّ أيضًا، الذي قامت عليه الحداثة النقديّة الغربيّة، ونهلت منه أسسها المعرفيّة، وهو ما يبرز مدى اتكائها على هذه المرجعيّات والبنيات.

وفي السياق نفسه، نجد أنّ نشوء النظريّة لم يكن بمعزلٍ عن المدارس النقديّة الغربيّة الحديثة، التي سبقتها أو تزامنت معها، كالشكلّيّة، والبنيويّة، والسيميائيّة، والتفكيكيّة، ولاسيما لجهة علاقتها بالطرح الفكريّ والفلسفيّ، واستقائها منه أطرَها العامّة وأبعادها الكلّيّة، بل، على العكس من ذلك، كانت نظريّة التناصّ في أتون ما مرتّ به تلك المدارس من ظروفٍ ومنعطفاتٍ؛ تأثّرت بها، وأخذتها من حالٍ نقديّةٍ إلى أخرى، فمن النقد الكلاسيكيّ المستند إلى الخارج إلى المناهج النصيّة القائمة على تناول الوحدات الداخليّة وتوليد الدلالات منها، ثمّ إلى إشراك القارئ أو ترك الأمر إليه في إنتاج الدلالة، وقد شكّلت تلك المناهج والمدارس المتتالية ملامح النقد الغربيّ الحديث، الذي أضحت مسالة هذه الدراسة (نظريّة التناصّ) إحدى تجلّياته البارزة.

واستكمالاً للصورة، سيقودنا هذا إلى الحديث عن الحواضن القريبة للمفهوم، وسنقف على المشهد النقديّ للحقبة التي ظهرت فيها النظريّة، وما تميزت به من خصائص؛ برزت آثارها في تبلور المفهوم وتشكّل النظريّة، وسنركّز القول على جماعة تيل كيل، التي كوّن أعضاؤها واحدًا من أبرز وأهم التشكيلات النقديّة التي قادت الحركة النقديّة الغربية في تلك الحقبة، ويأخذنا هذا إلى تحديد الصورة، في دائرة أكثر تركيزًا وقربًا من الموضوع، وذلك بالوقوف على إحدى أبرز أعضاء هذه الجماعة، وهي جوليا كريستيفا، حيث نتناول ما تميّزت به من تشعبٍ فكريٍّ كانت له ارتداداته الواسعة على تناولها مفهوم التناص، ونقف على سبكها مصطلحَ التناصّ وعلاقته بمصطلح النص لديها، ونستكمل فكرة هذا المبحث بمناقشة مدى دقّة الحكم بأنّ ما قدّمته كريستيفا حول التناص يُعدّ نظريّةً، وكشف العلاقة بين التناص وثنائية الفكر واللغة.